الكتاب: إتحاف أهل الزمان
المؤلف: عمر غامسوري
الجزء:
الوفاة: معاصر
المجموعة: ردود علماء المسلمين على الوهابية والمخالفين
تحقيق: لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار
الطبعة:
سنة الطبع: ١٩٦٣ م
المطبعة:
الناشر: نشر كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار
ردمك:
ملاحظات:

أحمد ابن أبي الضياف
إتحاف أهل الزمان
بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان
تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار
لنشر كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار
تونس ١٩٦٣

وفي الرابع والعشرين من جمادى الثانية سنة ١٢٢٩. تسع وعشرين ومائتين وألف
(الاثنين ١٣ جوان ١٨١٤ م)، ورد البشير من الدولة العلية العثمانية، بأخذ الحرمين
الشريفين
من يد الوهابي، وأعلنت مدافع الحاضرة سرورا بذلك.
ولا بأس أن نلم بخبر هذا الوهابي:
وهو أن رجلا يقال له محمد بن عبد الوهاب، من تلاميذ الشيخ ابن تيمية الحنبلي،
منع زيارة القبور، حتى قبور الأنبياء، ومنع التوسل بهم إلى الله تعالى، والبناء على
قبورهم
وصرح بكفر من يفعل ذلك وسماه مشركا، زاعما أن الزيارة والتوسل عبادة، وهي
لا تكون إلا لله تعالى. وترامت بهذا الرجل الأسفار إلى أن استقر بالدرعية من أرض
نجد، فصادف بها آذانا واعية، وقلوبا من العلم خاوية، وألقى لكبيرهم سعود هذا
المذهب، واستدل له بظواهر آيات وأحاديث اغتر بها عامتهم حتى استباحوا قتال
المسلمين. ولم يزل هذا المذهب ينمو إلى أن أفضى الأمر لسعود بن عبد العزيز بن
سعود،
القائم الأول، فعظم الأمر في زمنه، ونصب حربا للمسلمين عموما، ولأهل الحجاز
خصوصا، وصدهم عن بيت الله الحرام، وزيارة قبر سيد الأنام، وعاث في أهل الحجاز،
وأطلق يد القتل والنهب فيهم. واستحكم هذا المذهب في قلوب أتباعه، والتحموا به
التحام
النسب. واشتدت عصبيتهم وقويت، فطلبوا غايتها وهي الملك والسلطان. وأقاموا دعاة
يدعون الناس إلى مذهبهم، مع رسائل وجهوها لآفاق المسلمين، فوصلت منها رسالة
للقطر التونسي نصها:
بسم الله الرحمن الرحيم، نستعينه ونستغفره ونعوذ به من شر أنفسنا ومن سيئات
أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، ونشهد أن لا
إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله. من يطع الله ورسوله
فقد
رشد، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى، ولا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا.
أما بعد، فقد قال الله تعالى: " قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا
ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين " (١). وقال الله تعالى:
" قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم

(١) س ١٢ / آ ١٠٨

ذنوبكم " (١). وقال الله تعالى: " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم
عنه فانتهوا " (٢). وقال الله تعالى: " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت
عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا " (٣)، فأخبر سبحانه أنه أكمل
الدين وأتمه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وأمرنا بلزوم ما أتى به إلينا من
ربنا،
وترك البدع والتفرق والاختلاف. وقال تعالى: " اتبعوا ما أنزل إليكم من
ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون " (٤). وقال تعالى:
" وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم
عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون " (٥).
والرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر بأن أمته آخذة ما أخذه الأمم قبلها شبرا
فشبرا وذراعا فذراعا. وأخبر في الحديث أن أمته ستفترق ثلاثا وسبعين فرقة كلها في
النار إلا واحدة، قالوا: " من هي يا رسول الله؟ " قال: " من كان على مثل ما أنا
عليه اليوم وأصحابي ".
وإذا عرفت هذا، فمعلوم ما عمت به البلوى من حوادث الأمور التي أعظمها
الإشراك بالله، والتوجه إلى الموتى، وسؤالهم النصر على العدى، وقضاء الحاجات.
وتفريج الكربات التي لا يقدر عليها إلا رب الأرض والسماوات، وكذلك التقرب إليهم
بالنذور، وذبح القربات، والاستعانة بهم في كشف الشدائد وجلب الفوائد، إلى غير
ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلح إلا لله تعالى.
وصرف شئ من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها، لأنه سبحانه أغنى
الأغنياء عن الشركاء، ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه، وأخبر أن
المشركين يدعون الملائكة والأنبياء والصالحين ليقربوهم إلى الله زلفى، ويشفعوا
لهم عنده، وأخبر أنه لا يهدي من هو كاذب كفار.
وقال تعالى: " ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم
ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في
السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون " (٦)، فأخبر

----

(١) س ٨ / آ ٨١.
(٢) س ٥٩ / آ ٧.
(٣) س ٥ / آ ٣.
(٤) س ٧ / آ ٣.
(٥) س ٦ / آ ١٥٣.
(٦) س ١٠ / آ ١٨.

أن من جعل بينه وبين الله وسائط لأجل الشفاعة فقد عبدهم وأشرك بهم، وذلك
أن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى: " قل لله الشفاعة جميعا " (١) ز " من
ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه " (٢) وقال تعالى: " يومئذ لا تنفع الشفاعة
إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا " (٣). وهو سبحانه لا يرضى إلا
التوحيد، كما قال تعالى: " ولا يشفعون إلا لمن ارتضى " (٤). فالشفاعة
حق، ولا تطلب في دار الدنيا إلا من الله، كما قال تعالى: " وأن المساجد لله فلا
تدعوا مع الله أحدا " (٥). وقال تعالى: " ولا تدع من دون الله ما لا
ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين " (٦). فإذا كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد الشفعاء، وصاحب المقام المحمود، وآدم
فمن
دونه تحت لوائه، لا يشفع إلا بإذن الله، ولا يشفع ابتداء، بل يأتي فيخر لله ساجدا،
فيحمده بمحامد يعلمه إياها، ثم يقول له: " ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع "،
ثم يحد له حدا فيدخلهم الجنة، فكيف بغيره من الأنبياء والأولياء؟ وهذا الذي
ذكرنا لا يخالف فيه أحد من علماء المسلمين، بل قد أجمع عليه السلف الصالح من
الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم ممن سلك سبيلهم ودرج على منهاجهم. وما
حدث من سؤال الأنبياء والأولياء من الشفاعة بعد موتهم، وتعظيم قبورهم ببناء القباب
عليها وإسراجها والصلاة عندها وجعل الصدقة والنذور لها، فكل ذلك من حوادث
الأمور التي أخبر بوقوعها النبي صلى الله عليه وسلم أمته وحذر منها، كما في الحديث
عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي
بالمشركين وحتى تعبد أقوام من أمتي الأوثان ".
وهو صلى الله عليه وسلم حمى جانب التوحيد أعظم حماية، وسد كل طريق
موصل إلى الشرك، فنهى أن يجصص القبر ويبنى عليه، كما ثبت في صحيح مسلم
من حديث جابر، وثبت فيه لفظ: أنه بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره أن
لا يدع قبرا مشرفا إلا سواه. ولذلك قال غير واحد من العلماء: " يجب هدم القباب
المبنية
على القبور "، لأنها أسست على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم.

----

(١) س ٣٩ / آ ٤٤ -
٢) س ٢ / آ ٢٥٥ -
٣) س ٢٠ / آ ١٠٩ -
٤) س ٢١ / آ ٢٨ -
٥) س ٧٢ / آ ١٨
(٦) س ١٠ / آ ١٠٦

فهذا هو الذي أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس، حتى آل الأمر إلى أن كفرونا وقاتلونا واستحلوا دماءنا وأموالنا، حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم، وهو الذي ندعو الناس إليه ونقاتلهم عليه، بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع السلف الصالح من الأئمة، ممتثلين لقوله تعالى: " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله " (١). فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان، دعوناه بالسيف والسنان، كما قال الله تعالى: " ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد " (٢).

وندعو إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحج بيت الله الحرام، ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ولله عاقبة الأمور.

فهذا ما نعتقده وندين الله به، فمن عمل على ذلك فهو أخونا المسلم، له ما لنا وعليه ما علينا.

ونعتقد أيضا أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا تجتمع على ضلالة، وأنه لا تزال طائفة من أمته على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك. انتهى.

ولا يخفى أن هذا الرجل، بنى شبهته على أن التوسل إلى الله ببركة الأنبياء فمن دونهم عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله، ومن فعل ذلك فقد أشرك بالله. وما درى أن العبادة الشرعية هي التكاليف التي اشتملت عليها الشريعة، سواء كانت معقولة المعنى أو تعبدية، وأن ما خرج عن التكاليف الشرعية ليس من العبادة في شئ. ولم يفرق بين البدعة الموصلة إلى الكفر، المقتضي للقتال، واستباحة الدماء والأموال، وبين غيرها، وإنما قصد ملكا يريد الحصول عليه بعصبية دينية.

ولما شاعت هذه الرسالة في القطر التونسي، بعث بها الباي؟؟؟ أبو محمد حمودة باشا إلى علماء عصره، وطلب منهم أن يوضحوا للناس الحق، فكتب عليها العلامة المحقق، نسيج وحده، أبو الفداء إسماعيل التميمي، كتابا مطولا بديعا، يدل على يد طولى

---

(١) س ٨ / آ ٣٩ -
٢) س ٥٧ / آ ٢٥

وسعة اطلاع، سماه " المنح الإلهية في طمس الضلالة الوهابية "، وأجاب عنها العلامة
المحقق فخر عصره أبو حفص عمر ابن المفتي العلامة فخر المذهب المالكي أبي
الفضل
قاسم المحجوب، برسالة بديعة مشتملة على الرد عليه، في قصده الذي صرح به والذي
أشار إليه، وهي المطابقة لمقتضى الحال، نذكرها عوض ما أضربنا عنه من المقامات،
وأشعار التكسب التي لا تفيد إلا التقرب للممدوح. ونصها:
ربنا أفتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين (١)،
ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم
الكافرين (٢). يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من
ضل إذا اهتديتم، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم
تعملون (٣). يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام
ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم
ورضوانا وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم أن
صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا
تعاونوا على الإثم والعدوان (٤).
أما بعد هذه الفاتحة، التي طلعت في سماء المفاتحة، فإنك راسلتنا تزعم أنك
القائم بنصرة الدين، وأنك تدعو على بصيرة لما دعا إليه سيد الأولين والآخرين، وتحث
على الاقتفاء والاتباع، وتنهى عن الفرقة والابتداع، وأشرت في كتابك إلى النهي عن
الفرقة واختلاف العباد، فأصبحت كما قال الله تعالى: " ومن الناس من يعجبك
قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام
وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله
لا يحب الفساد (٥).
وقد زعمت أن الناس قد ابتدعوا في الإسلام أمورا، وأشركوا بالله من الأموات
جمهورا، في توسلهم بمشاهد الأولياء عند الأزمات، وتشفعهم بهم في قضاء
الحاجات،
ونذر النذور إليهم والقربات، وغير ذلك من أنواع العبادات، وأن ذلك كله إشراك برب

----

(١) س ٧ / آ ٨٩ -
٢) س ١٠ / آ ٨٥ و ٨٦ -
٣) س ٥ / آ ١٠٥ -
٤) س ٥ / آ ٢ -
(٥) س ٢ / آ ٢٠٤ و ٢٠٥

الأرضين والسماوات، وكفر قد استحللتم به القتال وانتهاك الحرمات، ولعمر الله أنك قد
ضللت وأضللت، وركبت مراكب الطغيان بما استحللت، وشنعت وهولت،
وعلى تكفير السلف والخلف عولت، وها نحن نحاكمك إلى كتاب الله المحكم،
وإلى السنن الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم.
أما ما أقدمت عليه من قتال أهل الإسلام، وإخافة أهل البلد الحرام، والتسلط على المعتصمين بكلمتي الشهادة، وأدمتم إضرام الحرب بين المسلمين وإيقاده، فقد اشتريتم في ذلك حطام الدنيا بالآخرة، ووقعتم بذلك في الكبائر المتكاثرة، وفرقتم كلمة المسلمين، وخلعتم من أعناقكم ربقة الطاعة والدين، وقد قال الله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى
إليكم السلم لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله
مغانم كثيرة " (١)، وقال عليه الصلاة والسلام: " أمرت أن أقاتل الناس حتى
يقولوا لا إله إلا الله - أي ومحمد رسول الله - فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم،
إلا بحقها، وحسابهم على الله ".
وحيث كنت لكتاب الله معتمدا، ولعماد سنته مستندا، فكيف بعد هذا
- ويحك - تستحل دماء أقوام بهذه الكلمة ناطقون، وبرسالة النبي صلى الله عليه وسلم مصدقون، ولدعائم الإسلام يقيمون، ولحوزة الإسلام يحمون، ولعبدة الأصنام يقاتلون.، وعلى التوحيد يناضلون، وكيف قذفتم أنفسكم في مهواة الإلحاد، ووقعتم في شق العصا والسعي في الأرض بالفساد؟.
وأما ما تأولته عليهم من تكفيرهم بزيارة الأولياء والصالحين، وجعلهم وسائط بينهم وبين رب العالمين، وزعمت أن ذلك شنشنة الجاهلية الماضين، فنقول لكم في جوابه: معاذ الله أن يعبد مسلم تلك المشاهد، وأن يأتي إليها معظما تعظيم العابد، وأن يخضع لها خضوع الجاهلية للأصنام، وأن يعبدها بسجود أو ركوع أو صيام، ولو وقع ذلك من جاهل لانتهض إليه ولاة الأمر والعظماء، وأنكره العارفون والعلماء، وأوضحوا
للجاهل المنهج القويم، وهدوه الصراط المستقيم.

----

(١) س ٤ / آ ٩٤
إتحاف - ٥ -

وأما ما جنحت إليه، وعولت في التكفير عليه، من التوجه إلى الموتى وسؤالهم النصر على العدى، وقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، التي لا يقدر عليها إلا رب الأرضين والسماوات، إلى آخر ما ذكرتم، موقدا به نيران الفرقة والشتات، فقد أخطأت فيه خطأ مبينا، وابتغيت فيه غير الإسلام دينا، فإن التوسل بالمخلوق مشروع، ووارد في السنة القويمة ليس بمحظور ولا ممنوع، ومشارع الحديث الشريف بذلك مفعمة، وأدلته كثيرة محكمة، تضيق المهارق عن استقصائها، ويكل اليراع إذا كلف بإحصائها، ويكفي منها توسل الصحابة والتابعين، في خلافة عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، واستسقاؤهم عام الرمادة بالعباس، واستدفاعهم به الجدب والبأس، وذلك أن الأرض أجدبت في زمن عمر رضي الله عنه، وكانت الريح تذرو ترابا كالرماد لشدة الجدب، فسميت عام الرمادة لذلك، فخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالعباس بن عبد المطلب يستسقي للناس، فأخذ بضبعيه، وأشخصه قائما بين يديه، وقال: اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك، فإنك تقول وقولك الحق: " وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما
وكان أبوهما صالحا " (١)، فحفظتهما لصلاح أبيهما، فاحفظ اللهم نبيك في عمه، فقد دنونا به إليك مستغفرين، ثم أقبل على الناس وقال: استغفروا ربكم إنه كان غفارا، والعباس عيناه تنضحان يقول: اللهم أنت الراعي لا تهمل الضالة ولا تدع الكسير بدار مضيعة، فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا، إنه لا ييأس من روحك إلا القوم الكافرون، اللهم فأغثهم بغياثك فقد تقرب القوم إليك بمكانتي من نبيك عليه السلام " فنشأت سحابة، ثم تراكمت، وماست فيها ريح، ثم هزت، ودرت بغيث واكف. وعاد الناس يتمسحون بردائه ويقولون له: هنيئا لك ساقي الحرمين.

فأخبرني - يا أخا العرب - هل تكفر بهذا التوسل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، وتكفر معه سائر من حضر من الصحابة والتابعين، لكونهم جعلوا بينهم وبين الله واسطة من الناس، وتشفعوا إليه بالعباس، وهل أشركوا بهذا الصنيع مع الله

---

(١) س ١٨ / آ ٨٢

غيره، وما منهم إلا من أنهضته للدين القويم غيرة. كلا والله، وأقسم بالله وتالله، بل مكفزهم هو الكافر، والحائد عن سبيلهم هو المنافق الفاجر، وهم أهدى سبيلا، وأقوم قيلا. وقد قال عليه الصلاة والسلام: " اقتدوا بمن بعدي، أبي بكر وعمر ".
وإذا قدحت في هذا الجمع من الصحابة الذين منهم عثمان بن عفان وعلي ابن أبي طالب
وغيرهما، فمن أين وصل لك هذا الدين، و [من] رواه لك مبلغا عن سيد المرسلين؟ ثم ما تصنع يا هذا في الحديث الآخر الذي رواه مسلم في صحيحه مرفوعا للنبي صلى الله عليه وسلم في أويس، وأنه أخبر به عليه الصلاة والسلام وهو من أعلام النبوة، وأمر عمر بطلب الاستغفار منه، وأنه طلب منه ذلك واستغفر له. وقد قال الله تعالى عن إخوة يوسف
عليه السلام: " يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين " (١).
فالزائر للأولياء والصالحين إما أن يدعو الله لحاجته، ويتوسل بسر ذلك الولي في إنجاح بغيته، كفعل عمر في الاستسقاء، أو يستمد من المزور الشفاعة له وإمداده بالدعاء، كما في حديث أويس القرني، إذ الأولياء والعلماء كالشهداء أحياء في قبورهم، إنما انتقلوا من دار الفناء إلى دار البقاء.
فأي حرج بعد هذا يا أيها القائم للدين، في زيارة الأولياء والصالحين؟ وأي منكر تقوم بتغييره، وتقتحم شق العصا وإضرام سعيره؟ ولعلك من المبتدعة الذين ينكرون أنواعا كثيرة من الشفاعة، ولا يثبتونها إلا لأهل الطاعة، كما أنه يلوح من كتابك إنكار كرامات الأولياء، وعدم نفع الدعاء، وكلها عقائد عن السنة زائغة، وعن الطريق المستقيم رائغة.
وقولكم إن ما قلتموه لا يخالف فيه أحد من المسلمين، افتراء ومين، وإلحاد في الدين، لأن أهل السنة والجماعة، يثبتون لغير الأنبياء الشفاعة، كالعلماء والصلحاء وآحاد المؤمنين، فمنهم من يشفع للقبيلة ومنهم من يشفع للفئام من الناس، كما ورد أيضا أن أويس القرني يشفع في مثل ربيعة ومضر. وأما المعتزلة فإنهم منعوا شفاعة غير النبي صلى الله عليه وسلم، وأثبتوا الشفاعة العظمى من هول الموقف، والشفاعة للمؤمنين
المطيعين أو التائبين في رفع الدرجات، ولم يثبتوا الشفاعة لأهل الكبائر الذين لم يتوبوا، في النجاة من النار، بناء على مذهبهم الفاسد من التكفير بالذنوب، وأنه يجب عليها التعذيب.

----
(١) س ١٢ / آ ٩٧

وأما ما جنحت إليه من هدم ما بني على مشاهد الأولياء من القباب، من غير تفرقة بين العامر والخراب، فهي الداهية الدهياء والعظيمة العظمى من الظلم، التي أضلك الله فيها على علم، " ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ". (١)

وكأنك سمعت في بعض المحاضر، بعض الأحاديث الواردة في النهي عن البناء على المقابر، فتلقفته مجملا من غير بيان، وأخذته جزافا من غير مكيال ولا ميزان، وجعلت ذلك وليجة إلى ما تقلدته من العسف والطغيان، في هدم ما على قبور الأولياء والعلماء من البنيان. ولو فاوضت الأئمة، واستهديت هداة الأمة، الذين خاضوا من الشريعة لججها، واقتحموا ثبجها، وعالجوا غمارها، وركبوا تيارها، لأخبروك أن محل ذلك الزجر، ومطلع ذلك الفجر، في البناء في مقابر المسلمين، المعدة لدفن عامتهم لا على التعيين، لما فيه من التحجير على بقية المستحقين، ونبش عظام المسلمين.

وأما ما يبنيه المسلمون أو الكفار في أملاكهم المملوكة لهم، ليصلوا بمن يدفن هناك حبلهم، فلا حرج يلحقهم، ولا حرمة ترهقهم. فكما لا تحجير عليهم في بناء أملاكهم دورا أو حوانيت أو مساجد، كذلك لا حرج عليهم في جعلها قبابا أو مقامات أو مشاهد.

ثم ليتك إذا تلقفت ذلك منهم، ووعيته عنهم، أن تعيد عليهم السؤال، وتشرح لهم نازلة الحال، وهل يجوز بعد النزول والوقوع، هدم ما بني على الوجه الممنوع، وهل هذا التخريب محظور أو مشروع. فإذا أجابوك أنه من معارك الأنظار، ومحل اختلاف العلماء والنظار، وأن منهم من يقول بإبقائه على حاله، رعيا للحائز في إتلاف ماله، وأن له شبهة في الجملة تحميه، وفي ذلك البناء منفعة للزائر تقيه. ومنهم من شدد النكير، وأبي إلا الهدم والتغيير. فإذا تحقق عندك هذا، فكيف تقدم هذا الإقدام وتخوض مزالق الأقدام، وتطلق العنان في هدم كل مقام، من غير مراعاة إل في الدين ولا ذمام. فإذا انفتحت لك هذه الأبواب، نظرت بنظر آخر ليس فيه ارتياب،

---

(١) س ٢ / آ ١١٤

وهو أن المنكر الذي اقتضى نظرك تغييره، ليس متفقا عليه عند أهل البصيرة، وأنه من مدارك الاجتهاد، وقد سقط عنك القيام فيه والانتقاد. ثم بعد الوصول إلى هذا المقام، أعد نظرا في إيقاد نار الحرب بين أهل الإسلام، واستباحة المسجد الحرام، وإخافة أهل الحرمين الشريفين، والاستهوان لإصابة لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فسيتضح لك أنك غيرت المنكر في زعمك، وبحسب اعتقادك وفهمك، وأتيت بجمل كثيرة من المناكر، وطائفة عديدة من الكبائر، آذيت بها نفسك والمسلمين، وابتغيت بها غير سبيل المؤمنين، وتعرضت بها لاذاية الأولياء والصالحين، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام، في حديث رواه البخاري والإمام، قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
" إن الله عز وجل قال من عادى لي وليا فقد آذنني بحرب "، فكفى بالتعرض لحرب الله خطرا، وقذفا في العطب وضررا.
وأما إنكار زيارة القبور، فأي حرج فيها أو محظور، وأي ذميمة تطرقها أو تعروها، مع ثبوت حديث " كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها "، فإن هذا الحديث ناسخ لما ورد من النهي عن زيارتها، وماح لما في أول الإسلام من حماية الأمة من أسباب ضلالتها، لقرب عهدها بجاهليتها، وعبادة أصنامها وآلهتها. وكيف تمنع من زيارتها، والنبي صلى الله عليه وسلم قد شرعها، وسام رياضها وأربعها، فقد ثبت في حديث عائشة أم المؤمنين، أنه صلى الله عليه وسلم زار بقيع الغرقد واستغفر فيه لموتى المسلمين،
وثبت أيضا أنه زار قبر أمه آمنة بنت وهب واستغفر لها.
وأخذ بذلك الصحابة والتابعون، ودرج عليه العلماء والسلف الماضون، فقد ثبت في الأحاديث المروية عن أئمة الهدى، ونجوم الاقتداء، أن فاطمة سيدة نساء العالمين زارت
عمها سيد الشهداء، وذهبت من المدينة إلى جبل أحد، ولم ينكر من الصحابة أحد، وهم إذ ذاك بالمدينة متآمرون، وعلى إقامة الدين متناصرون. أفتجعل هؤلاء أيضا مبتدعين، وأنهم سكتوا عن الابتداع في الدين؟ كلا والله، بل يجب علينا اتباعهم، ومن أدلة الشريعة إجماعهم.
وقد مضت على ذلك العلماء في جميع الأقطار، وانتدبوا بأنفسهم للاستمداد من قبور الصلحاء، وقضاء الأوطار، وخلدوا ذلك في كتبهم ومؤلفاتهم، وسطروه في

دواوينهم وتعليقاتهم وقسموا الزيادة إلى أقسام وأوضحوا ما تلخص لديهم من الأحكام
وذلك أن الزيارة إن كانت للاتعاظ والاعتبار، فلا فرق في جوازها بين قبور
المسلمين والكفار، وإن كانت للترحم والاستغفار من الزائر، فلا منع فيها إلا في حق
الكافر، فإن الشريعة أخبرت بعدم غفران كفره، وعليه حملوا قوله تعالى: " ولا
تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره " (١). وإن كانت
الزيارة لاستمداد الزائر من المزور، وتوخي المكان الذي فضله مشهور، والدعاء عند
قبره لأمر من الأمور، فلا حرج فيها ولا محظور، بل هو مندوب إليه، ومرغب فيه،
وأنه مما تشد المطي إليه، ومن خالف في هذا الحكم سبيل جمهورهم، واتبع من
الشبهات مخالف منشورهم، فقد شدد العلماء في النكير عليه، وسددوا سهام النقد
إليه، وأشرعوا نحوه رماح التضليل، وأرهفوا له سيوف التجهيل، واتفقت كلمتهم على
بدعته في الاعتقاد، وثنوا إليه عنان الانتقاد، " ومن يضلل الله فما له من هاد ".
وأما النهي الوارد في شد المطي لغير المساجد الثلاثة فإنما هو بالنسبة لنذر الصلاة
فيها، فإنه لا يختلف ثواب الصلاة لديها.
وأما المزارات فتختلف في التصريف مقاماتها، وتتفاوت في ذلك كراماتها، وذلك
لسر في الاستمداد لا تطلع عليه، وضرب بسور له باب بينك وبين الوصول
إليه، وقد أوضح ذلك حجة الإسلام، ومن شهد له بالصديقية العلماء والأولياء العظام.
وأما إدماجكم لقبور الأنبياء في أثناء النكير، والتضليل لزائرها والتكفير، فهو
الذي أحفظ عليكم الصدور، وأترع حياض الكراهة والنفور، وسدد إليكم سهام
الاعتراض، وأوقد شواظ البغض والارتماض.
فقل لي - يا أخا العرب - هل قمت لنصرة الدين أم لنقض عزاه، وهل أنت
مصدق بالوحي لنبيه أم قائل: إن هو إلا إفك افتراه؟ وما تصنع بعد اللتيا والتي، في
حديث " من زار قبري وجبت له شفاعتي "؟ وأخبرني هل تضلل سليمان بن داود

---

(١) س ٩ / آ ٨٤

في بنائه على قبر الخليل، ومن معه من أنبياء بني إسرائيل؟ وما تقول – ويحك – في الحديث الذي رواه جهابذة الرواة، وصححه المحدثون الثقات، وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال: " لما أسري بي إلى بيت المقدس، مر بي جبريل على قبر إبراهيم عليهما السلام، فقال لي إنزل فصل هنا ركعتين، فإن ههنا قبر أبيك إبراهيم عليه السلام "؟
وعنه صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر أنه قال: " من لم تمكنه زيارتي فليزر قبر إبراهيم الخليل عليه السلام ". فأين تذهب بعد هذا يا هذا؟ وهل تجد لنفسك مدخلا أو معاذا؟ وهل أبقيت بعد تضليل جميع الأنبياء ملاذا؟ " ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ". (١)
وأما تلميحكم للأحاديث التي تتلقفونها، ولا تحسنونها ولا تعرفونها، فهمتم بسبب ذلك في أودية الضلالة، ولم تشيموا بها إلا بروق الجهالة، وسلكتم شعابها من غير خبير، ونحوتم أبوابها بلا تدبر ولا تدبير، فإن حديث " لا تتخذوا قبري مسجدا "، محمله عند البخاري على جعله للصلاة متعبدا، حفظا للتوحيد، وحماية للجاهل من العبيد، لأن المصلي للقبلة يصير كأنه مصل إليه، فحمى صلى الله عليه وسلم حمى ذلك من الوقوع فيه. وأما قصده للزيارة والاستشفاع، والاستمداد ببركته والانتفاع، وقصد المسلمين إياه من سائر البقاع، فما يسعنا إلا الاتباع.
وكذلك ما لوحت به إلى شد الرحال، فإنك أخطأت في الاستشهاد به في نازلة الحال، وذلك أن الحصر في المساجد، دون سائر المشاهد.
وكذلك ما لمحت إليه من حديث تعظيم القبر بإسراجه، فإنك أخطأت فيه واضح منهاجه، مع بهرجة نقده في رواجه، ومحمله – على فرض صحته – على فعل ذلك للتعظيم المجرد عن الانتفاع للزائرين، أما إذا كان القصد به انتفاع اللائذين والمقيمين، فهو جائز بلا مين.
وأما ما تدعونه من ذبح الذبائح والنذور، وتبالغون في شأنها التغيير والتنكير، وتصف ألسنتكم الكذب، وتثيرون في شأنها الهرج والشغب، فكون الذبائح المذكورة مما أهل به لغير الله مكابرة للعيان، وقذف بالإفك والبهتان، فإنا بلونا أحوال أولئك الناذرين، فلم نر أحدا منهم يسمي عند ذبحها اسم ولي من الصالحين، ولا يلطخ

---

(١) س ٣ / آ ٨

الضرائح، بدم تلك الذبائح، ولا يأتون بفعل من الأفعال، الحاكمة على تحريم الذبيحة والاهلال.
وأما نذرها لتلكم المزارات، فليس على أنها من باب الديانات، ولا أن من لم يفعل ذلك يكن ناقص الدين في العادات، وإنما يقصدون بذلك مقاصد الرقي والنشر (١)، والانتفاع في الدنيا بسر في التصدق بها استتر، ولم يدر منها إلا ما اشتهر.
والواجب علينا وعليكم الرجوع في حكم نذرها إلى العلماء الأعلام، المتضلعين من دراية الأحكام، المقيمين لقسطاسها، المسرجين لنبراسها، الناقبين على أساسها، ومن لديهم محك عسجدها ونحاسها.
فإن كنتم للحق تقيمون، ومن مخالفة الشريعة تتجرمون، " فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون "، " ولا تقعدوا بكل صراط توعدون "،
فإنهم يهدونكم السبيل، ويفتونكم في هذه المسألة بالتفصيل، وأن هذا الناذر إن نذر تلك الذبائح للولي المعين بلفظ الهدي والبدنة، فقد جاء بالسيئة مكان الحسنة. ولكن ما رأينا من خلع في هذا المحظور رسنه، ولا من اهتصر فننه، وإن نذر تلك الذبائح لمحل الزيارة، بغير هاته العبارة، وكان من الذبائح التي تقبل أن تكون هديا، فهل يلزمه أن يسعى به لذلك المزار سعيا، أو لا يلزمه إلا التصدق به في موضعه رعيا، خلاف في مذهب مالك شهير، قرره العلماء النحارير. وإن كان ذلك النذر مما لا يصح إهداؤه، فالقاصد للفقراء الملازمين بمحل الشيخ يلزمه بعثه وإنهاؤه، والقاصد للولي في نذره وتشرعه (٢)، لا يلزمه إلا التصدق به في موضعه.
وإذا اتضح لديك الحال، فأي داعية للحرب والقتال؟ وهل يتميز المشروع من هذه الصور بالمحظور، إلا بالنيات التي لا يعلمها إلا العالم بما في الصدور؟ والله إنما كلفنا بالظاهر، ووكل إليه أمر السرائر. ولم يقيض بالخواطر نقيبا، ولا جعل عليها مهيمنا من الولاة ولا رقيبا.

---

(١) النشرة بضم النون: ضرب من الرقية والعلاج، يعالج به من كان يظن أن به مسا من الجن (النهاية لابن الأثير)
(٢) تشرع: ١ تبع شريعة أو دينا (دوزى)

وإذا التزمت سد الذريعة بالمنع من المشروع، خوفا من الوقوع في الممنوع، فالتزم هذا الالتزام، في سائر العبادات الواقعة في الإسلام، التي لا تفرقة فيها بين المسلم والكافر، إلا بما انطوت عليه الضمائر. فإن المصلي في المسجد يحتمل أن يقصد عبادة الحجارة، بمثل ما احتمل صاحب الذبائح والزيارة، والصائم يحتمل أن يقصد بصومه تصحيح المزاج، أو المداواة والعلاج، والمزكي يحتمل أن يقصد مقصدا دنيويا، أو معبودا جاهليا، والمحرم بحج أو عمرة، يحتمل أن ينوي ما يوجب كفره.

وإذا وصلت إلى هذا الالتزام، نقضت سائر دعائم الإسلام، والتبس أهل الكفر بأهل الإيمان، وأفضى الحال إلى هدم جميع الأركان، واستبيحت دماء جميع المسلمين، وهدمت صلواتهم ومساجدهم وصوامعهم أجمعين.

فانظر أيها الإنسان، ما هذا الهذيان، وكيف لعب بك الشيطان، وماذا أوقعك فيه من الخسران. فارجع عن هذا الضلال المبين، وقل ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.

وأما ما جلبتم من الأحاديث الواردة في تغيير النبي صلى الله عليه وسلم للقبور، وأنه أمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه بطمسها وتسويتها، فقد أخطأتم الطريق في فهمها، ولم يأتكم نبأ علمها، ولو سألتم عن ذلك ذويه، لأخبروكم بأن محمله طمس ما كانت الجاهلية عليه، وكانت عادتهم إذا مات عظيم من عظمائهم، بنوا على قبره بناء كأطم من آطامهم، مباهاة وفخرا، وتعاظما وكبرا، فبعث صلى الله عليه وسلم من يمحو من الجاهلية آثارها، ويطمس مباهاتها وفخارها، وإلا فلو كان كما ذكرتم، لكان حكم التسنيم (١) كحكم ما أنكرتم.

وإذا استبان لكم واتضح لديكم، انقلبت الحجة التي أتيتم بها عليكم، وكيف تجعلون تلك الأحاديث حجة قاضية، على وجوب كون القبور ضاحية (٢)، والفرق ظاهر بين البناء على القبور، وحفر القبور تحت البناء، فالأول من فعل الجاهلية الوارد فيه ما ورد، والثاني هو الذي يعوزكم فيه المستند، ولا يوافقكم على تعميم النهي أحد.

---

(١) تسنيم القبر خلاف تسطيحه، وقبر مسنم إذا كان مرفوعا عن الأرض (اللسان).

(٢) الضاحي من كل شئ البارز الظاهر (اللسان).

وأما ما نزعتم إليه من التهديد، وقرعتم فيه بآيات الحديد، وذكرتم " أن من لم يجب بالحجة والبيان، دعوناه بالسيف والسنان "، فاعلم يا هذا أننا لسنا ممن يعبد الله على
حرف، ولا ممن يفر عن نصرة دينه من الزحف، ولا ممن يظن بربه الظنون، أو يتزحزح عن الوثوق بقوله تعالى: " فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون " (١)، ولا ممن يميل عن الاعتصام بالله سرا وعلنا، أو يشك في قوله تعالى: " قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا " (٢)، وما بنا من وهن ولا فشل،
ولا ضعف في النكاية ولا كسل، ننتصر للدين ونحمي حماه، وما النصر إلا من عند الله.

وأما ما جال في نفوسكم، ودار في رؤوسكم، وامتدت إليه يد الطمع، وسولته الأماني والخدع، من أنكم من الفئة الذين هم ومن حالفهم، لا يضرهم من خالفهم، وأنكم من الطائفة الظاهرين على الحق، وأن هذه المناقب تساق إليكم وتحق، فكلا وحاشا أن يكون لكم في هذه المناقب من نصيب، أو يصير لكم إرثها بفرض أو تعصيب، فإن هذا الحديث وإن كان واردا صحيحا، إلا أنكم لم توفوا طريقه تنقيحا، فإن في بعض رواياته " وهم بالمغرب " وهي تحجبكم عن هذه المناقب، وتبعدكم عنها
بعد المشارق من المغارب.

فانفض يديك، مما ليس إليك، ولا تمدن عينيك، إلى من حرمت عليك، فإنكاح الثريا من سهيل، أمكن من هذا المستحيل.

أما أهل هذه الأصقاع، والذين بأيديهم مقاليد هذه البقاع، فهم أجدر أن يكونوا من إخواننا، وتمتد أيديهم إلى خوانها، لصحة عقائدهم السنية، واتباعهم سبيل الشريعة المحمدية، ونبذهم للابتداع في الدين، وانقيادهم للاجماع وسبيل المؤمنين.

وقد أنبأتنا في هذا الكتاب، وأعربت في طي الخطاب، عن عقائد المبتدعة، الزائغين عن السنة المتبعة، الراكبين مراكب الاعتساف، الراغبين عن جمع الكلمة والائتلاف، فالنصيحة النصيحة، أن تنزع لباس العقائد الفاسدة وتتسربل العقائد الصحيحة، وترجع إلى الله وتؤمن بلقاه، ولا تكفر أحدا بذنب اجتناه، فإن تبتم فهو خير لكم، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله.

----

(١) س ٧ / آ ٣٤ -
٢) س ٩ / آ ٥١

وزبدة الجواب وفذلكة الحساب، إنك إن قفوت يا أخا العرب نصحك، وأسوت؟؟؟ بالتوبة جرحك، وأدملت بالإنابة قرحك، فمرحبا بأخي الصلاح، وحيهلا بالمؤازر على الطاعة والنجاح، وجمع الكلمة والسماح، وإن أطلت في لجة الغواية سبحك، وشيدت في الفتنة صرحك، واختلت عارضا رمحك، فإن بني عمك فيهم رماح، وما منهم إلا من يتقلد الصفاح، ويجيل في الحرب فائز القداح.

والله تعالى يسدد سهام الأمة الساعية فيما يحبه ويرضاه، ويخمد ضرام الفئة الباغية حتى تفيئ إلى أمر الله. والسلام.

وبعث حمودة باشا بهذه الرسالة إلى القائم الوهابي فلم يجب عنها. ولج في حروبه وقتاله، إلى أن كانت الهزيمة آخر حاله، على يد رجل الدنيا وواحدها الطائر الصيت في جهات المعمور، من رد الله به مصر إلى شبابها، رد شباب امرأة العزيز ليوسف الصديق، وهو أبو عبد الله محمد علي باشا، عزيز مصر، رحمه الله.

* * *